خاتمة

حتىٰ نعلَمَ ونعملَ:

من المفيد أن نستخلص -في نهاية المطاف- الرؤية الأساسية للكتاب، والخطوط العامة التي هدف إلىٰ وضعها أمام القارئ، والتي تمثّل في جوهرها استبطاناً وتصوراً لأزمة الأمة، وللعوامل الأساسية المؤثرة فيها، وإبراز العناصر المفقودة في مشاريع الإصلاح الإسلامي المنشود.

فالأمة الإسلامية هي حاملة رسالة الهدىٰ والنور إلىٰ البشرية كافة، وقد قامت بدورها في الماضي بتصحيح مسار الحضارة الإنسانية، ورفعتها إلىٰ آفاق أسمىٰ من الأخلاقية والعلمية والعالمية، وزودتها بالمنطلقات التي تقف خلف كل إنجازات الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وعلىٰ الرغم من الطاقة الإيمانية الحضارية السامية العظيمة التي فجرها الإسلام، فإنّ رواسب التقاليد والثقافات والفلسفات، وتغيّر القاعدة السياسية إلىٰ قبلية وشعوبية، قد عملت علىٰ تشويه الرؤية الإسلامية، وتدمير منهجية الفكر والمعرفة الإسلامية، وتلويث ثقافة الإسلام، ممّا أفقد الأمةَ بُعْدَها العام، ومكَّنَ لعقلية الشعوذة والخرافة والعرقية من أن تستحوذ عليها.

وانتهىٰ ذلك الغبش العقدي والفكري والتشوه الثقافي إلىٰ الجمود والتخلّف، وأورث قيادات الأمة الضعف والعجز، ممّا نتج عنه التأخر

والإرهاب السياسي والديني،[1] وأورث الأمة "نفسية العبيد" التي تتسم بالفردية والخوف وعدم المبادرة، وجعل من الأمة جسداً خامداً خِلواً من روح الوحدة والتكافل، ومن روح الشجاعة، ومن طاقات القدرة والإبداع والمبادرة، وأصبحت الأمة فريسة لكل عدو وطامع.

وجاءت محاولات الإصلاح -برغم إخلاصها وتضحياتها- جزئية سياسية، وعلى الرغم من أنّها تسعى دائماً إلى استنهاض الهمم، وصد التعديات ودفعها عن الأمة، فإنّ هذه المحاولات لم تكن على وعي كامل بحقيقة أمراض الأمة المعرفية الثقافية والنفسية الوجدانية.

وطبيعة الخطاب السياسي أنّه يعمل على ضم الصفوف وإحياء الأمل، ولكنّه إذا لم يدع مجالاً للخطاب الفكري الناقد؛ فإنّ الأمة عند ذلك لن تتمكّن من تجديد طاقة مواجهة التحديات وتنميتها، ويؤول مصيرها ومصير جهودها وحركاتها الإصلاحية إلى الاستنزاف والضعف المتزايد.

إنّ عدم فهم الإشكال المعرفي، ومن ثمّ عدم إدراك علاقة المعرفي بالنفسي الوجداني، هما من أهم أسباب انشطار المعرفة الإسلامية إلى معرفة دينية وأخرى مدنية، متواجهتين متنابذتين متدابرتين، انتهى الأمر بهما إلى "تهافت الفلاسفة"، وموات "علوم الدين"؛ أي جمود الكلي القيمي، وضمور دوره، وعقم السنني الإنساني وجموده، وجمود ما يلحق به من العلوم والمعرفة الإنسانية. وهذا أورثنا الاهتمام الكمي بالمعلومات العقيمة، وعدم إدراك

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. "إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ السياسي الإسلامي"، **مجلة المسلم المعاصر**، العدد ٢٢، السنة ٣١، ٢٠٠٦م.

علاقتها بالعملي وبالوجداني وآثاره النفسية، فأهملنا العلوم الإنسانية، وأهملنا الطفولة والتربية التي هي مجال التغيير، ومجال تنمية الطاقة، واستثمار القدرات، وتزويد الأمة بخزانات وقود الطاقة النوعية المتنامية اللازمة لمواجهة المتغيرات والتصدي لمواجهة التحديات.

وحتى نحرك عجلات النهضة والتقدّم، ونعيد بناء الطاقة النفسية الوجدانية المحركة للإرادة الإنسانية، وبناء القدرات البشرية، والمعرفة العلمية، والجهود الذاتية اللازمة للنهوض بالأمة، فإنه ينبغي أن يقوم المفكرون والعلماء والأساتذة الجامعيون والمثقفون وقيادات الأمة بدورهم في إصلاح أسس الخلل، وإعداد العدة المعرفية والنفسية لتجنيد أبناء الأمة من أجل إنجاز مشروع الإعمار والإصلاح الحضاري الإسلامي.

ولا بدّ من استعادة الرؤية الإسلامية التوحيدية الاستخلافية العمرانية الحضارية الـخَيِّـرة. ومن إصلاح منهج المعرفة، وضمِّ جناحيه القيمي الديني والسنني الإنساني، وتنقية الثقافة الإسلامية من كل ما أصابها من أوضار العقم والتلوث.

ثمّ يأتي بعد ذلك دور تفاعل المعرفي والنفسي والوجداني تربوياً في تكوين الإنسان المسلم؛ حتى يكون على الدوام مؤمناً خيّراً مبدعاً قادراً على توفير الطاقات والمهارات اللازمة لمواجهة التحديات.

والفكر والمفكرون والمثقفون هم المنطلق المعرفي للإصلاح، وتأتي التربية والمربون منطلقاً للإصلاح النفسي والوجداني، وبذلك يصبح الأساتذة الجامعيون، ويصبح التعليم العالي وسائل مهمة في عملية الإصلاح الفكري،

وتصبح التربية والتعليم العام أدوات مساندة للأسرة في مجال الإصلاح النفسي والوجداني.

والمؤسسات على أشكالها المختلفة تعمل جاهدةً من أجل المحافظة على الوضع القائم وإبقائه وديمومته، والحرص على أنّ أيّ تغيير إنّما يتم في إطار هذا الوضع القائم، ولذلك لا بدّ لطلاب الإصلاح والتغيير من معرفة مفتاح تشغيل حركة عملية التغيير. ومن دون معرفة هذا المفتاح، ومعرفة طبيعة عملية التغيير ومتطلبات تحريكها؛ فإنّه لا يمكن إحداث التغيير المطلوب، ويصبح المصلحون كمن يحاولون تحريك عجلات عربة التغيير بأيديهم.

إنّ مفتاح تشغيل التغيير السلمي في المجتمع إلى ما هو أفضل إنّما يكمن تلقائياً في الوازع الفطري في نفوس الآباء، وحرصهم على ما فيه مصلحة أبنائهم، وهو دافع أودعه الله في النفوس، ولـه القدرة والتأثير الأكبر في تكوين عقلية الفرد ونفسيته في مرحلة الطفولة. وبناء عليه فإنّ تضامن المفكرين والمربين في أداء أدوارهم في فهم الأبوَّة والطفولة، والقيام بالأبحاث العلمية التربوية ضمن منطلقات ومشكلات الفكر والثقافة الإسلامية، أمرٌ ضروريٌّ للقيام بدورهم في تقديم الأدبيات العلمية الفاعلة إلى الآباء المسلمين، والوصول بهم إلى الوعي والاقتناع بما هو مطلوب منهم. ولذلك طوَّرت الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، من منطلق إسلامية المعرفة، ثلاثة مقررات دراسية لطلابها، وقررت دبلومات دراسية لتخريج المدرسين اللازمين لها، وهذه المقررات التي أُريد لها أن تكون متطلبات جامعية لجميع منسوبيها من الطلاب، هي: مقرر "الأسرة والأبوَّة"، ومقرر "الفكر الإبداعي

وحل المشكلات"، ومقرر "قيام الحضارات وانهيارها".

ويأتي الدور المعرفي للمدرسة والمعلّم تَبَعاً ومكملاً للدور الوجداني التربوي للآباء والأمهات، وإذا ما توافر الوعي فإنّ دور المعلّمين يتكامل مع دور الآباء؛ لأنّ المعلّم يحمل -عادةً- الرغبةَ في رعاية التلميذ، وفي جعله قادراً على تحقيق النجاح في حياته، وتوظيف طاقته في مواجهة التحديات والتغلب عليها.

وهكذا يتضح لنا في النهاية أنّ من أهم أسباب قصور الحركات الإصلاحية في تاريخ الأمة عن تحقيق أهدافها، هو عدم إدراكها أهمية الجانب الوجداني في إصلاح العطب النفسي الذي أصاب الأمة، ومن ثم عدم إدراكها أهميةَ دور الطفولة في إحداث الإصلاح النفسي الوجداني، وتحرير الأمة من أزمة "نفسية العبيد"، والانتقال بها إلى دور القدرة والإبداع والمبادرة، كما فعل سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببني إسرائيل في (سيناء).

كما يتضح لنا في النهاية مسؤولية المفكرين والتربويين والمثقفين والأساتذة والمعلّمين في أخذ زمام المبادرة، وتحريكِ مفتاح تشغيل التغيير السلمي والإصلاحِ الجذري، وهو الدور نفسه الذي يقوم به سائق السيارة في تحريك عملية سيرها وانطلاقتها نحو غايتها، وهو هنا تفعيل عنصر الطفولة الغائب واللازم لتفعيل وجدان الأمة، واستكمال أدوات إصلاحها، وتحريرها، وتنمية طاقاتها وقدراتها لما فيه مصلحة الأبناء، ولا بدّ من أن يكون خطاباً علمياً مقنعاً تبنى له مراكز البحث العلمي، من أجل تقديم الأدبيات والبرامج التربوية العلمية، في جهدٍ علمي حيٍّ، وخطابٍ فعّالٍ يتعاون في

بنائه وتسويقه المخلصون كافةً من المثقفين والقادرين، ومن رجال حركات الإصلاح وقيادات المجتمع ومؤسسات المجتمع المدنية، فذلك هو السبيل الوحيد الذي يمكِّن المسلم من أخذ زمامَ مبادرة البناء والتحرير، وعندها فقط تستجيب المؤسسات الرسمية لنبضه، وتوجهات حركته، وتصبح عند ذلك -بالضرورة- عوناً لـه في تحقيق غايته "فكما تكونون يولّى عليكم".

إنّ على الآباء أن يدركوا أنّهم -في هذه المرحلة- المفتاحُ والأساسُ لتحرير الأمة وبناء طاقاتها، ومستقبل أجيالها، وأنّه دون جهدهم في الاتجاه الصحيح لا سبيل إلى القدرة والعزة والخلاص.

وكلمة أخيرة إلى المفكرين والمثقفين والإصلاحيين بشأن نوعية جهدهم ودورهم، وهي أن من المهم لنجاح جهودهم العمل الجاد في أداء دورهم الرائد في تحريك مفتاح التشغيل لحركة التغيير في الأمة، وذلك بتقديم الرؤية الحضارية الإسلامية، وتنقية ثقافة الأمة، والتبصير بأمراضها الوجدانية، وبسبل علاجها والقضاء عليها. وحياة الرسول ﷺ خير مثل لثمار المثابرة والصبر. فقد أخذ نفسه وأصحابه في مكة لثلاث عشرة سنة بالعمل والصبر والمثابرة في إرساء القواعد، وبناء الأسس، وإعداد "الكوادر"، لتنطلق بعدها طاقة الإصلاح في عشر سنين لتغيّر وجه الدنيا والتاريخ، وتكتسح كل الغثاء وتزيل كل العقبات أمام أمةٍ وحضارةٍ وفجرٍ جديد، وهذا هو ديدن كل حركة تغيير كبرى في التاريخ.

ودون الاعتماد على النفس، والتخلي عن كل أحلام "الآخر المنقذ" والحل السهل العاجل، سوف تمضي بالأمة العقود والقرون على ما خبرنا من وَهْم

الآخر وخسفه، ومن وتيـرة العجز والقهر والذل. وليس لنا أن نتوقع في المستقبل -كما في الماضي- إلا المزيدَ من الأزماتِ والكوارث التي تستنزف في كل يوم، وفي كل جيلٍ، كلَّ ما يسري في كيان الأمة من طاقةٍ وقدرةٍ متضائلة نحن أحوج ما نكون لها، لكي نصلح بها ذواتنا وننمّي بها طاقاتنا، إلا أن يشاء الله ونصحوَ ويصحوَ المفكرون والمثقفون والإصلاحيون كي يؤدوا دورهم، ويضعوا حركة إصلاح الأمة على الجادة في إصلاح الذات معرفياً ووجدانياً، وإرساء الأسس لبناء أجيال تتمتع بعقلٍ ووجدانٍ حرٍّ صحيحٍ سليمٍ. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١]، وإذ يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ - ٣].

نسأل الله سبحانه وتعالى العون والسداد والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.